استوقد نارا وتركهم في ظلمات لا يبصرون قال ابن عباس نزلت في المنافقين يقول مثلهم
في نفاقهم كمثل رجل أوقد نارا في ليلة مظلمة في مغارة فاستدفأ ورأى ما حوله فاتقى
مما يخاف فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره فبقي في ظلمة حائرا متحيرا فكذلك حال المنافقين
أظهروا كلمة الإيمان فأمنوا بها على أنفسهم وأموالهم وناكحوا المسلمين وقاسموهم
في الغنائم فكذلك نورهم فلما ماتوا عادوا إلى الظلمة والخوف وقيل ذهاب نورهم
ظهور عقيدتهم للمؤمنين على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل ذهاب نورهم في
القبر أو على الصراط فإن قلت ما وجه شبه الإيمان بالنور والكفر بالظلمة قلت
وجه تشبيه الإيمان بالنور أن النور أبلغ الأشياء في الهداية إلى المحجة القصوى وإلى الطريق
المستقيم وإزالة الحيرة وكذلك الإيمان هو الطريق الواضح إلى الله تعالى وإلى جناته وتشبيه
الكفر بالظلمة لأن الضال عن الطريق المستقيم المسلوكة في الظلمة لا يزداد إلا حيرة وكذلك
الكفر لا يزداد صاحبه في الآخرة إلا حيرة وفي ضرب المثل للمنافقين بالنار ثلاث حكم أحدها
أن المستضيء بالنار مستضيء بنور غيره فإذا ذهب ذلك بقي هو في ظلمة فكأنهم لما
أقروا بالإيمان من غير اعتقاد قلوبهم فكان إيمانهم كالمستعار. الثانية أن النار محتاج
في دوامها إلى مادة الحطب لتدوم فكذلك الإيمان يحتاج إلى مادة الاعتقاد ليدوم. الثالثة
أن الظلمة الحادثة بعد الضوء أشد على الإنسان من ظلمة لم يجد قبلها ضوءا فشبه
حالهم بذلك ثم وصفهم الله تعالى فقال صم أي عن سماع الحق لأنهم لا يقبلونه وإذا لم
يقبلوه فكأنهم لم يسمعوه بكم أي خرس عن النطق بالحق فهم لا يقولونه عمي أي لا
بصائر لهم يميزون بها بين الحق والباطل ومن لا بصيرة له كمن لا بصر له فهو أعمى لأن
حواسهم سليمة ولكن لما سدوا عن سماع الحق آذانهم وأبوا أن ينطقوا به ألسنتهم وأن
ينظروا إليه بعيونهم جعلوا كمن تعطلت حواسه وذهب إدراكه قال الشاعر
صم إذا سمعوا خيرا ذكرت به … وإن ذكرت بسوء عندهم أذن
فهم لا يرجعون أي عن الضلالة ثم ضرب لهم مثلا آخر فقال تعالى أو كصيب أي كأصحاب صيب وهو
المطر وكلما نزل من الأعلى إلى الأسفل فهو صيب من السماء أي من جهة السماء لأن كل ما
علاك فأظلك فهو سماء ومنه قيل لسقف البيت سماء وقيل من السماء يعني من السحاب
وإنما ذكر الله تعالى السماء وإن كان المطر لا ينزل إلا منها ليرد على من زعم أن المطر
ينعقد من أبخرة الأرض كما زعم الحكماء فيه أي في الصيب ظلمات جمع ظلمة ورعد هو
الصوت الذي يسمع من السحاب وبرق يعني النار التي تخرج منه قال ابن عباس الرعد
اسم ملك يسوق السحاب والبرق لمعان سوط من نور يزجر به الملك السحاب وقيل الرعد اسم
ملك يزجر السحاب إذا تبددت جمعها وضمها فإذا اشتد غضبه طار من فيه النار
فهي البرق والصواعق وقيل الرعد تسبيح الملك وقيل اسمه يجعلون أصابعهم
في آذانهم من الصواعق جمع صاعقة وهي الصيحة التي يموت من سمعها
أو يغشى عليه وقيل الصاعقة قطعة من العذاب ينزلها الله على من يشاء. عن ابن
عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا سمع صوت الرعد والصواعق قال اللهم
لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك أخرجه الترمذي وقال حديث غريب
حذر الموت أي مخافة الهلاك والله محيط بالكافرين أي عالم بهم وقيل يجمعهم
ويهلكهم يكاد البرق أي يقرب يقال كاد يفعل ولم يفعل يخطف أبصارهم أي
يختلسها والخطف استلاب الشيء بسرعة كلما أي متى ما جاء أضاء لهم يعني البرق

مشوا فيه

12

مشوا فيه أي في ضوئه ونوره وإذا أظلم عليهم قاموا أي وقفوا متحيرين وهذا
مثل ضربه الله تعالى للمنافقين ووجه التمثيل أن الله عز وجل شبههم في كفرهم ونفاقهم
بقوم كانوا في مفازة في ليلة مظلمة فأصابهم مطر فيه ظلمات وهي ظلمة الليل وظلمة
السحاب من صفته تلك الظلمات أن الساري لا يمكنه المشي فيها ورعد من صفته أن يضم
سامعوه أصابعهم إلى آذانهم من هوله وبرق من صفته أن يخطف أبصارهم ويعميها
من شدته فهذا مثل ضربه الله تعالى للقرآن وصنيع الكافرين والمنافقين معه فالمطر هو
القرآن لأنه حياة القلوب كما أن المطر حياة الأرض والظلمات ما في القرآن من ذكر
الكفر والشرك والنفاق والرعد ما خوفوا به من الوعيد وذكر النار والبرق ما فيه من
الهدى والبيان والوعد وذكر الجنة والنار والكافرون والمنافقون يسدون آذانهم عند
قراءة القرآن وسماعه مخافة أن تميل قلوبهم إليه لأن الإيمان عندهم كفر والكفر موت
وقيل هذا مثل ضربه الله تعالى للإسلام فالمطر هو الإسلام والظلمات ما فيه من البلاء
والمحن والرعد ما فيه من ذكر الوعيد والمخاوف في الآخرة والبرق ما فيه من الوعد يجعلون
أصابعهم في آذانهم يعني المنافقين إذا رأوا في الإسلام بلاء وشدة هربوا حذرا من
الهلاك والله محيط بالكافرين يعني لا يكاد الإسلام تزعجهم إلى النظر لولا ما سبق لهم من
الشقاوة كلما أضاء لهم يعني المنافقين وإضاءته لهم هو تركهم بلا ابتلاء ولا امتحان
مشوا فيه يعني على العهد المشبه بالظاهر كلمة الإيمان وقيل كلما نالوا غنيمة وراحة
في الإسلام ثبتوا وقالوا إنا معكم وإذا أظلم عليهم قاموا يعني إذا رأوا شدة وبلاء تأخروا
ولو شاء الله لذهب بسمعهم أي بصوت الرعد وأبصارهم بوميض البرق وقيل لذهب
بسمعهم وأبصارهم الظاهرة كما أذهب الله أسماعهم وأبصارهم الباطنة إن الله على
كل شيء قدير أي هو الفاعل لما يشاء لا منازع له فيه قوله عز وجل يا أيها الناس قال
ابن عباس يا أيها الناس خطاب لأهل مكة ويا أيها الذين آمنوا خطاب لأهل المدينة وهو هنا
خطاب عام لسائر المكلفين اعبدوا ربكم قال ابن عباس وحدوا ربكم وكل ما ورد في القرآن
من العبادة فمعناه التوحيد وأصل العبودية التذلل غاية التذلل ولا يستحقها إلا من له
غاية الإفضال والإنعام وهو الله تعالى الذي خلقكم أي ابتدع خلقكم من غير مثال سبق
والذين من قبلكم أي وخلق الذين من قبلكم لعلكم أي لكي وعسى حرفا ترجي وهما في كل
منهما من الله واجب تتقون أي لكي تنجوا من العذاب وقيل معناه تكونوا على رجاء التقوى
بأن تصيروا في ستر ووقاية من عذاب الله وحكم الله من ورائكم يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ورائكم
الذي جعل لكم الأرض فراشا أي خلق لكم الأرض بساطا ووطاء مذللة ولم يجعلها حزنة
لا يمكن القرار عليها والحزن ما غلظ من الأرض والسماء بناء أي سقفا مرفوعا قيل إذا
تأمل الإنسان المتفكر في العالم وجده كالبيت المعمور فيه كل ما يحتاج إليه فالسماء
مرفوعة كالسقف والأرض مفروشة كالبساط والنجوم كالمصابيح والإنسان كمالك
البيت وفيه ضروب النبات المهيأة لمنافعه وأصناف الحيوان مصروفة في مصالحه فيجب
على الإنسان المسخر له هذه الأشياء شكر الله تعالى عليها وأنزل من السماء يعني السحاب
ماء يعني المطر فأخرج به أي بذلك الماء من الثمرات يعني من ألوان الثمرات وأصناف
النبات رزقا لكم أي وعلفا لدوابكم فلا تجعلوا لله أندادا يعني أمثالا تعبدونهم
كعبادته والند المثل وأنتم تعلمون يعني أنكم بعقولكم تعلمون أن هذه الأشياء ولا
مثال لا يجوز جعلها أندادا لله وأنه واحد خالق لجميع الأشياء وأنه لا مثل له ولا ضد له

جامعة الملك سعود
قسم المخطوطات
Copyright © King Saud University

Created with PDFsharp 1.2.1269-g (www.pdfsharp.com)